خواطر في اللغة

بين التقليد والفوضى

أنسلم قيادنا لبداهة الفطرة ؟

قلب الهمزة

الهاء والهمزة تتبدّل احداهما من الاخرى قال المتنبّي

لِهِنْكِ اولى لامٍ بملامةٍ واحوج ممّن تعذلين الى العذل

وكثيرون من عشائر البلويين في شمالي سوريا يقولون هِنْتْ وهِنْتِ اي إنْتْ وإنْتِ . بل سمعت من بعض العارفين الذين يُركَن الى ما يقولون انهُ يغلب على ألسنة كثيرين من اهل المدن الانكليزيّة والاميركانيّة فولهم — إيْ إزْ — اي هيي إزْ He is . وإزْ بَوك اي هِيزْ بوك His book

ويقولون وهو الشائع الآن على الالسنة في كل الاقطار العربيّة وكان شائعاً كذلك في ايام سيبويه — كتابو وكتابا . ونظَرتو ونَظَرْتا — اي كتابُهو وكتابَها ونظرتُهو ونظرتَها وهلمّ جرًّا

والهمزة تتبدّل حرف علّة واواً او ياء او تُلَيَّن الفاً وبالعكس اذن فالحروف الخمسة هذه تتبدّل بعضها مع بعض . وتبدُّلها انما هو للخفّة وحسن الوقع في السمع فيُستدَل اليه اذن وفقاً لبداهة الفطرة فانها هي الحاكمة في خفّة اللفظ وحسن وقعه في السمع

وتُعرَف بداهة الفطرة بما يغلب على الالسنة فحيث يكون هذا تكون تلك وهي اذا لم يشوّشها مشوّش تسوق المتكلّم بطبعها الى الخفّة وحسن الوقع في السمع كما انها تُلزِمُهُ ايضاً البقاء على الاصل حيث العدول عنهُ يؤدّي الى اللبس

ومن الامثلة على ما مرّ اسم الفاعل الثلاثيّ من الاجوف كفائل وبائع وخائف ودائن وصائل الخ من قال وباع وخاف ودان وصال فانّ حرف العلّة تُلتزَم في الجميع همزة . وبيانهُ — قياس اسم الفاعل من الثلاثي هو فاعل بزيادة الف قبل عين الفعل مكسورة ولما كانت عين الاجوف الفاً لا تقبل الحركة قُلِبتْ ياءً في الجميع ثم قُلِبتْ الياء همزة . ويجوز ان تقول إنّ الالف التي هي عين الفعل تُقلَب همزة رأساً تُكسَر وفقاً للقياس الذي رسخ مع الاجيال

قلت اولاً . ان عين الفعل قُلبت ياءً في الجميع وحتى على القول بذلك أنّ الياء يسهل كسرها غالباً اكثر من الواو وشاهدنا الحسّ فانّ « قايل» لا يرتاب لافظ لم يشوش عليه حكمهُ تشوّش اخف شيئاً على اللسان واسهل في السمع من «قاوِل» وانّما قايل وقائل فقلّما يُشعر بفرق بينهما في الخفّة كما يُخيَّل اليّ ولذلك فبعضهم ممّن يحبّون ليونة اللفظ يجيئون بالياء ولكنّ بعضهم يفضّلون الهمز مع الكسرة لانّها اخفّ على ما اتخيّل واشهى لفظاً عند من يحسنون لفظ حروف الحلق ويحبّون النبرة التي فيها

ويُمكننا ان نحصل ممّا مرّ ضابطاً عمومياً شاملاً وهو أنّ حرف العلة بعد الف وقبل حرف متطرّف او في حكم المتطرف حكمهُ حكم اسم الفاعل من الاجوف يجوز قلبهُ همزةً او إبقاؤهُ على الاصل ويُشترك فيه الامر لبداهة القطرة تقلبُ او تُبقي على الاصل اذ لم نجد داعي للقلب ادّى بها هذا الى اللبس فتقول من قال وصان وخاف مثلاً قايل وصائن وخايف او بالهمزة ولم يَرد قاوِل ولا صاوِن ولا خاوِف ولا مَنْ يتكلم بها الآن ايضاً . ومثل ذلك منايِر ومفايِر او منائِر ومفائِر ومع أنّي ارى التليين فيها اخف على لساني واشهى في سمعي مع ذلك لا أخطّىء من يقول بالهمز حتّى ولا مَنْ يقوّل مفاوِر بالبقاء على الاصل المدلول عليه بمضارع الفعل كما يقولون

وقالوا في عَجُوز عجائِز ولم يرد عجاوِز ولا من يتكلّم به الآن ولكنّهم قالوا في جَدْوَل جداول وفي مفازة مفاوز لم يرد غير ذلك ولا من يتكلم الآن بخلافه . فانظر الى دقّة نظر بداهة الفطرة وصحة احكامها ولا تخف من فوضى الالسنة التي يهوّل بعضهم علينا وعلى انفسهم بها . ومثل جدول ومفازة بقوَد او مقادة ومروحة فانهُ نُقل فيها مقاود ومراوح ولا يتكلّم احد فيها بالهمز بل انت اذا اردت همز الواو او قلبها ياءً تعاصت عليك وعصاك لسان البداهة فاركن اليها اذن ولا تخف ان تضلّ بها عن سواء السبيل

ما يجوز ان يلحق بهذا الباب

مما يجوز ان يلحق بهذا الباب قلب حرف العلة (الواو والياء) في الابتداء همزة وهو قليل . ولم اعثر لهُ على صورة الاّ في باب « وكَدَ » فانهم قالوا في جميع صوره بالهمزة تارةً وبالواو تارةً فقالوا وكد واكد ووكّد واكّد وتوكّد وتأكّد وتوكيد وتأكيد . وقالوا أيس ويئس وآيس ويائس . وقالوا إكاف ووِكاف ووكف وأكف

وآكل وواكل وواسي وآسي وأُهبان ووهبان . وأكنة ووكنة . لكن قالوا في « واكل » انها لغة ردية . وكذلك قالوا في تأكيد ولم يطلوا عن ذلك . وعندي ان هذا العدول هو « كما قلنا مراراً » جائز لا واجب ويعتبر اي العدول عن الهمزة الى حرف العلة وبالعكس لغة فصيحة اذا ظهرت خفتهُ وحسن وقعهِ في السمع اكثر من المعدول عنهُ والاَّ فهو لغة ردية كآكل وواكل وتوكيد وتأكيد

وفي هذا الباب ما يستحق النظر اليهِ وهو انهم لم ينقلوا وكلَ في أكل ولا العكس ولكنهم نقلوا « واكل » في « آكل » والسبب في ذلك بداهة الفطرة فانها لا تعدل عن الاصل اذا ادَّى العدول الى الالتباس مهما كان اللفظ المعدول اليهِ أخفَّ على اللسان او اشهى في السمع . ولهذا لم يعدلوا الى الابدال في مجرد مهموز الفاء ولا الى الهمز في المثال الاَّ نادراً لان في العدول التباساً . على انهم لما قامت القرينة الواضحة في وجه الالتباس عدلوا اليهِ فقالوا « وكلَ ويسَّاهُ » اي اكلهُ « ووكِّلوني ويامِ بالرغم عني » اي حملوني على الاكل

فان قيل هذا لم ينقل قلت يكفي ان معظم اهل القطر المصري يقولونهُ مسلوم واباطهم . ومن ينكر هذا الاجماع ويحتج على عدم صحتهِ بانهُ لم ينقل في القاموس زبادي ولا في الصحاح او اللسان فلا اقول فيهِ الاَّ انهُ من الذين يزعمون ان العربية دون غيرها من سائر اللغات وجدت منذ القدم على ما هي عليهِ او كانت عليهِ في ايام الرشيد والمأمون وان الاعراب من العرب خصوا بفصاحتها وبلاغتها هم وعبيدهم وآماؤهم من الزنوج فلا الفاظ الاَّ الفاظهم ولا تركيب الاَّ تركيبهم ولا معاني الاَّ معانيهم وان مواليهم الذين اشتغلوا بتدوين اللغة من الفرس والروم والسريان ووضع قواعدها وضوابطها هم من العصمة في حرز حريز

واغرب من ذلك ان هؤلاء الزاعمين هذه المزاعم التي اشرنا اليها يكرون على من يستشهد بابي تمام او البحتري او المتنبي فيما لا يوافق ما يزعمون انهُ جاء عن نصيب[1]

(١) نقل المبرد في كامله عن نصيب انه كان يستعمل اللفظة ولا يعرف معناها وانما سمعهم يستعملونها فاستعملها . وكان عبد بني الحسحاس لا يحسن ان يقيم كثيراً من الحروف الحجائية كالضاد والطاء . ومتى كان اسلاف الاعراب اهل فصاحة وبلاغة يتقدمون فيها على اهل الملل والادب من الحضر . ولكن الفتوحات الاسلامية العربية جعلت لهم مكاناً في عالم الوجود لانهم كانوا جنودها وهذا بحث لا مجال للخوض فيه الآن

مثلاً او امة بني فلان ويكبرون وايما اكبار فعلة من بجعل ابن عابدين مثلاً سلالة بيت الفصاحة والبلاغة وعلامة جيله غير منازع موضع ثقة في اللغة ويقدرون ما جاء في مؤلفاته قدر ما جاء في كلام نصيب وعبد بني الحسحاس الا لكن او قدر ما جاء في مؤلفات الجاحظ المولى الشعوبي وابن المقفع الدهقان الفارسي . فيا لله من منطقنا وما يفعلهُ فينا التقليد

قلب حرف العلة همزة

ومن هذا الباب قلب حرف العلة همزة وهو كثير الاَّ انهُ غير واجب انما بداهة الفطرة تتلاعب فيهِ بحسب توهمها وتبعاً لاختلاف الاشخاص او العشائر والاسر فمنهم من يستحسن النبرة في الهمزة ومنهم من يفضل نعومة حرف المد عليها فيقال رأس وراس وبئر وبير وبؤس وبوس وسؤال وسوال ورئبال وريبال وقارئ وقاري . وقد اكثر صرفيونا من الكلام في هذا القلب وفي كتابة الهمزة بما اوجب العلامة نصر الهوريني أن يضع رسالتهُ المشهورة بل كتابه للمطابع المصرية اقتصر فيهِ على البحث عن رسم الهمزة فكان هذا البحث مثل بحث الالمان عن ال تعريفهم « كما سمعت » ان لم يزد عليها في الطول وسرعة البيان. والبحث كلهُ يغني عنهُ في اعتقادي بداهة الفطرة اذا استرشدنا بها فكتبنا الهمزة بصورة الحرف الذي تليّن بهِ الاَّ في مثل قرآة [1] واضاءة اي بالمدة على الالف ويغني عن المدة صورة العين المقطوعة بعد الالف كما نرى في إضاءة . فاذا وقفت طرفاً بعد ساكن صحيح كضوء وعبء وسحت كما نرى في اللفظين المارين ولا كرسيَّ لها كتلك التي في قراءة وإضاءة

ما ينسلك في هذا السلك ايضاً

ينسلك في سلك قلب الهمزة واواً او ياء وبالعكس اي قلب الواو او الياء همزة وقلب الواو ياء او الياء واواً في جمع المذكر السالم والملحق بهِ كنون وبنين وسنون وسنين ومُؤمنون ومؤمنين . والشعراء يعتبرون المدَّ قبل الحرف الاخير من القافية إن بالواو او بالياء واحداً قال البكري :

(١) قرآة واضاءة رسمها في الاصل عند الكتاب هكذا — قرأة واضأة وهذه الصورة لا التباس في قراءتها ولا تكلف او تعسف الا انهم عادوا فجعلوا الهمزة فوق الالف مدوها عليها مداً انفياً فصارت صورتها كما كتبناها ابتداء اي قرآة واضآة ولم يكتف الكتاب بهاتين الصورتين بل زادوا صورة ثالثة اي قرآءة واضآءة فحتر اي الاشكال الثلاثة اردت

فدنت وقالت يامخبل ما بجسمك من حرور
ما شفَّ جسمي غير حبك فاهدأي عني وسيري .

وقال ابو الطيب المتنبي :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
اين المعيز من الآرام ناظرةً وغير ناظرةٍ في الحسن والطيب

وهو اكثر من الكثير

ومثل الواو والنون والياء والنون في جمع المذكر السالم الالف والنون والياء والنون في المثنى . فانَّ الغالب على الالسنة اليوم هو الذي كان يغلب عليها فيما مضى اي انَّ بعضهم كانوا يلزمون الالف وآخرون يلزمون الياء وآخرون يقولون بالالف تارةً وبالياء تارةً يعتمدون على بداهة فطرتهم فيعدلون الى ما يرونهُ اخفَّ على اللسان او اشهى في السمع

وهكذا اظنُّ كان الحال في جمع المذكر السالم وان لم ينقل الينا الاشياخ الذين اخذنا عنهم او وصلتنا كتاباتهم مذهباً في ذلك كما نقلوهُ في المثنى . الاَّ انَّا لا نعدم الدلائل التي تدلُّ عليهِ ومنها انهم نقلوا في الاعلام التي الحقوها بجمع المذكر السالم كفيلسطين وقنسرين اللغات الثلاث على ما في المثنى اي التزام الواو او التزام الياء او التخليط وفقاً لما يتوهمون من الخفَّة وحسن الوقع في السمع

ومنها كذلك ما ورد على مثال قولنا وكانوا هم الظالمون تارةً او الظالمين تارة اخرى . واما قولهم انهم حسبوا « الظالمون » خبراً عن ضمير الفصل والجملة خبراً عن كان في مثل الصورة الاولى وحسبوا ضمير الفصل زائداً والظالمين خبراً عن كان في مثل الصورة الثانية فمن باب الترقيع الذي لا يغني عن الحقيقة ولا يقبلهُ الاَّ المأخوذ بحُسناهُ

ومنها مثل قول القائل ونقلهُ المبرِّد في كامله

إن كنت كارهةً معيشتنا هاتا فخلِّي في بني بَدْرِ
الضاربين لدى أعنَّهم والطاعنين وخيلهم تجري

ويروى البيت بالواو والنون ايضاً اي الضاربون والطاعنون . وقال آخر

لا يبعدن قومي الذين همُ سمُّ العداة وآفة الجُزرِ
النازلين بكل معترك والطيِّبين معاقد الأُزرِ

وكأني رأيت البيت الثاني يروى هكذا ايضاً

النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأُزُرِ

والنصب في مثل الامثلة التي ذكرناها بالقطع الى الرفع او النصب هو ايضاً من قبيل الترقيع فيا لله منهُ ومن استمرارنا عليهِ . ولا يسعني الوقت ان ابيّن فساد هذا الترقيع ببيان فساد الاركان التي بُنيَ عليها . واتماماً لهذا البحث لا بد لي من الملاحظة الآتية وهي ان فتح نون جمع المذكر السالم اخفُّ على اللسان من كسرها وكسرها بعد الف المثنى اخفُّ عليهِ من فتحها بشهادة الحسّ التي لا تُدفع والتي هي المرجع الاخير الذي لا يحتاج الى اقامة برهان او دليل . على انهم لمّا احتاجوا الى التمييز في الجمع كسروا وعليه قول الشاعر

وماذا تبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حدَّ الاربعينِ

اخو خمسين مجتمعٌ اشدّي ونجد في مداورة الشؤونِ

ولما احتاجوا الى الفتح مع المثنى فتحوا قال الشاعر

اعرفُ منها الجيد والعينانا ومنخرين اشبها ظبيانا

وظبيان علم لبعضهم ولعلّ المشار اليهِ هنا هو احد ملوكهم ايام عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير

على انَّ كسر النون مع الياء اخفُّ على اللسان منهُ مع الواو . قال احد ادباء الزمخشري —

ما نافعي إنْ كان ليس بنافعي جاه الصبا وشفاعةُ العشرينِ

فليعرض شاكُّ الامر على ذوقهِ وليحكم . ولا شك انَّ الذين استشهدنا بهم قد انساقوا الى ما قالوهُ بدافع الفطرة وكانوا من اشهر فصحاء زمانهم ولا يزال هذا الدافع هو المؤثر العامل كما كان قديماً انما تعاصى عليهِ مقلّدو اعاجم الموالي الذين اشتغلوا بوضع قواعد اللغة وكانوا في زمانهم العلماء الاعلام في نظر اهل الدولة من الجند والاعيان وسائر اتباعهم ولكن علمهم ولاسيما في وضع قواعد اللغة كان على ما صرنا نعلم ما هو ويكفينا في ذلك ان ننظر في تعليلات النوم التي اصبحت مضرب مثل في سخافتها وفسادها

يقول بعضهم انا لو سلمنا قيادنا الى بداهة الفطرة فقلنا في جمع المذكر السالم والملحق بهِ ما توحيهِ الينا هذه الفطرة لاختلط الحابل بالنابل ولفاتنا سهولة الفهم اذ لم نقل اتفق قلت هذا مجرَّد وهمٍ والواقع يعارضهُ وينقضهُ . فهذه تركيبات الاعداد بين العشرة

والعشرين فانها من ثلاث عشرة او ثلاثة عشر الى تسع عشرة تلزم صورة واحدة في كل حالاتها الاعرابية كما قلنا ولكنهم اضطروا اي النحاة مجاراة للمتكلمين ان يجوزوا فيها بناء الجزءين على الفتح واعراب الاول مضافاً او بناءه مبنياً واعراب الثاني وتنوينه تبعاً لما كان يتبادر الى الالسنة او وقتاً للحاجة ومع ذلك لم يختلط حابل بنابل ولا اختل الفهم على احد ولا تعسر عليه . ومن يتوقف في فهم ما لو قلنا « عندي عشرين كتاباً » او يرى فرقاً في سهولته بين الصورتين — عندي عشرون كتاباً . وعندي عشرين كتاباً . ؟ او ماذا يقول المتحوّف المتابع في قول من استشهدنا به او بها قبل الآن ويحسبه المبرّد من افصح من يستشهد بكلامهم

لا يبعدن قومي الذين هم سمُّ العداة وآفةُ الجزرِ
النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزرِ

فانهُ قال النازلين ثم عطف عليها فقال والطيبون أليس انتقالهُ من الياء والنون الى الواو والنون هو من باب انتقالنا الآن ببداهة الفطرة الى الاخف وعند التساوي او القرب من التساوي الى ما يسبق الى اللسان ؟ ومن يتوقف في الفهم الى ان يفطن الى الترقيع الذي رقعهُ القوم وسموهُ القطع الى الرفع او النصب في مثل قولهم مررت بزيدٍ الكريمُ او الكريمَ او الى التعليل الذي عللوهُ في الآية — (انَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعملَ صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون) ومن بابهِ قول الشاعر

ومَنْ بك امسى بالمدينة رحلهُ فأنّي وقيّار بها لغريب

ابعدنا النجعة . وانما فعلنا ذلك ليبين للمتأمل ان علامات الاعراب غير ضرورية في الاعراب وانَّ الذين سيقونا في الجاهلية والاسلام كانوا يجرون وفقاً لمقتضى بداهة فطرتهم كما يجري عموم المتكلمين منا الآن اي قلما يعرفون اواخر الكلمة الا في الشعر . وفي الشعر ايضاً كانوا يتركون الاعراب احياناً ولا يزال كثيرون من كبار شعرائنا الآخذين بهذا التقليد خلفاً عن سلف يقفون على اواخر اغلب كلماتهم في الحشو حيث يستقيم معهم الوزن امّا بطبيعة الكلمة او بطريقة تلاوتهم وقد سمعت امير شعرائنا الحاضرين وشاعر القطرين والرصافي شاعر العراق يجرون مع هذا التقليد المحفوظ عند اكابرهم الى اليوم. فليتفكر مفكر قبل ان يقيم على النكير فيما اعتمدت بيانهُ وتذكير اهل الفكرة والروية به